OPEN ACCESS
MA'ARIF-E-ISLAMI (AIOU)
ISSN (Print): 1992-8556
ISSN (Online): 2664-0171
https://mei.aiou.edu.pk

الروح الديني لاتجاهات الرثاء في العصر الإسلامي (دراسة وصفية)

Religious Spirit, lamentations trends in the Islamic Era(Descriptive Study)

الدكتور عبدالمجيد البغدادي

الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية، جامعة العلامة إقبال المفتوحة، إسلام آباد

الدكتور غلام أحمد

الأستاذ المساعد، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة الكلية الحكومية، فيصل آباد

Abstract

Era of Sadr al-Islam is that period extending from the mission of the Prophet Muhammad, may God bless him and grant him peace, until the last days of the Rightly-Guided Caliphs, which ended with the killing of the Emir of the Believers, the Caliph of Islam and Muslims, Ali Ibn Abi Talib, may God be pleased with him, in the year 40 of the Hijrah, and the lament remained a poetic purpose in That era, however, a new doctrine was introduced to it with a situation.The linguistic meaning of the lament is related to the deceased is originally a source of the verb (lamentable), so the deceased is said to be lamentable, his praise after death. Lamentation is a term in which the ancient Arab poets mean the benefits and effects of the deceased. As for the modernizers, they have praise for the deceased and the abundance of his traits. Dr. Muhammad Al-Moneim Al-Khafji says defining the lament is the crying and mourning of the dead and the display of agony for his separation and the sadness of his death during which he promised the generosity that the enemies take care of losing and praising his manners.

Keywords: *Sadr al-Islam, Ali Ibn Abi Talib, Caliph, lament, Arab poets, Moneim Al-Khafji.*

المدخل:معنى الرثاء لغة واصطلاحا

يرتبط المدلول اللغوى للرثاء بالميت وهو في الأصل مصدر للفعل (رثى)، فيقال رثيت الميت رثيا، و رثاء، و مرثاة، و مرثية، مدحته بعد الموت، و بكيته، و رثوت الميت اذا بكيته و عددت محاسنه، و كذلك إذا نظمت فيه شعرا و رثت المرأة بعلها، ترثيه و رثيته ترثاه رثاية فيهما.[1] وحكي في لغة، رثى يرثي من الرثية، و الرثية بالفتح: وجع في الركبتين والمفاصل وقال ابن سيدة: وجع المفاصل و اليدين و الرجلين، و قيل وجع في القوائم و قيل وجع و ظلاع في القوائم و قيل كل ما منعك الالتفات من كبر أو وجع أو ضعف، وقال رؤبة فشدّد [2]:

فإن تريني اليوم ذا رثية.

و يقول ابن فارس بأن الراء والثاء والحرف المعتل أصيل على رقة وإشفاق، يقال رثيت لفلان، و من الباب قولهم رثى الميّت بشعر، و من العرب من يقول:رثأت وليس بالأصل، أما الأصل الثاني فهو بالألف الممدودة المنقلبة عن واؤ يرثو مرثوة من الرثو، و رجل مرثو ضعيف الؤاد، قليل الفطنة، و أما الأصل الثالث فهو رثاء بالهمزة يرثأ رثيئة، ويقال الرثية أن يخلط اللبن الحامض بالحلو[3]، و يقول ابن منظور"رثأ يرثو رثأ، خلطه، و قيل:رثأه صيرّه رثيته أرثأ اللبن: خثر، في بعض اللغات، و رثأ القوم لهم، عمل لهم رثيته، ويقال في المثل: الرثية، تفثأ الغضب أي تكسر و تذهبه.[4] و رثأت الرجل: مدحته بعد موته، لغة في رثيته و رثأت المرأة زوجها،كذلك وهي المرثية، و قالت إمرأة من العرب رثأت زوجي بأبيات و همزت، أرادت رثيته.

قال الجوهرى: و أصله غير مهموز، قال الفراء: و ربما خرجت بهم فصاحتهم –يعني العرب– إلى أن يهمزوا ماليس بمهموز، فقالوا: رثأت الميت و لبأت بالحج[5] .

أما السيوطي فعده من الغلط في كتابه المزهر[6] و قيل رثاه (بتشديد الثاء) مخصوص بالمدح و من دون تشديد مخصوص بالبكاء، و قيل: إمرأة رثّاءة وثاية أي كثيرة البكاء و الرثاء لبعلها و لمن يكرم عندها. و لذا لما نرى في هذه المادة نقول: إننا نجد أن الضعف و العجز في الهمة و رخاوة الأعضاء--- كل ما يعني الانهماك والضعف نرى في المعاني الحسية الملموسة للأصول الثلاثة (رثا،رثى،رثأ).

أما الرثاء إصطلاحا فيعني شعراء العرب الأقدميين محاسن الميت ومأثره، و تعداد محاسنه و مناقبه بدون أي مبالغة و تجاوز من حد الاعتدال[7]. أما المحدثين فعندهم هو ثناء على الميت و ذخر صفاته التي اشتهر بها في حياته من كرم وجود و شجاع، و إظهار اللوعة و التحسر تجاه من فقدوهم من الأهل والأقارب والحبيب والسلطان وما إلى ذلك. و يقول الدكتور محمد المنعم الخفا جي بتعريف الرثاء هو بكاء الميت و التفجع عليه و إظهار اللوعة لفراقه والحزن لموته وعد خلاله الكريمة التي يروع الأعداء فقدها والإشادة بمناقبه[8].

و عرف الأستاذ منذر الجبوري قائلا: هو بكاء الأعزاء من الموتى والتأسي عليهم والتوجع لمصابهم[9].فيمكننا القول إن الرثاء هو صناعة الشعر في الموتى بكاء و ندبا وعزاء أو هو تصوير حزن الشاعر لموت إنسان و استثارة نفس الحزن في السامع و القارئ.

العصر الإسلامي

إن المقصود بعصر صدر الإسلام هو تلك الفترة الممتدة من بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى آخر أيام الخلفاء الراشدين، و التي انتهت بمقتل أمير المؤمنين خليفة الإسلام والمسلمين على بن أبي طالب رضى الله عنه عام 40 من الهجرة، و ظل الرثاء غرضا شعريا في ذلك العصر، إلا أن العقيدة الجديدة أدخلت عليه بوضع، فنرى الراثي لايذكر ماحظره الإسلام من المعاني المتعارضة مع أمر الله به من الصبر والإيمان بقضاء الله تعالى،كما كانت مراثي شعراء الرسول تتضمن معاني الجهاد والإشادة بالبطولة والشهادة في سبيل الله، و تتضمن أحيانا هجوا للمشركين و قتلاهم كما يقول الدكتور شوقي ضيف" لقد كان العربي في الجاهلية يعد سفك الدماء

حسنة كبرى من الحسنات فجاء الإسلام محرما للدماء رافعا لما كان منها القديم، كما رفع كثيرا من المأثر الجاهلية، و إقام مكانها مأثر جديدة من العدل و التقوى والزهد في الحياة، و إخلاص الوجوه لله، و هذه المثالية الجديدة كان لها شأنها في الرثاء فقد أخذت تحل فيه صفات لم يكن العربي الجاهلي يعني بها ولايفكر فيها"[10]. فنرى الروح الدينية في جميع المراثي التي قالوها الشعراء الإسلاميون في هذا العصر.

الروح الدينية في اتجاهات رثاءالرسول والخلفاء الراشدين

كان فقد الرسول قمة الحزن عند المسلين و فزع الصحابة لهذ النباء المفجع، و كاد عمر بن الخطاب أن لايصدق، لولا أن رده أبو بكر إلى صوابه وتلى عليه هذه الآية " إنك ميّت وإنهم ميّتون" [11].

و خرج الصحابة يصلون عليه ويشيعون إلى مثواه العطر بقلوب واجفة وعيون باكية، و يقال إن إبنة فاطمة كانت ترثيه و تقول:

اغبر آفاق السماء وكورت　　شمس النهار وأظلم العصران

فالأرض من بعد النبى كئيبة　　أسفا عليه كثيرة الرجفان[12]

و ما أبدع قصيدة رثى بها حسان وفيه يقول:

بطيبة رسم للرسول ومعهد　　منير وقد تعفو الرسوم وتعهد

ولاتمنحى الآيات من دار حرمة　بها منبر الهادي الذي كان يصعد[13]

و وقعنا على شعر كعب بن مالك رضي الله عنه يرثي النبى ﷺ و كان المصيبة قد عقدت لسانه فكادت تصيب شاعريته بالجفاف ولكنه رثاه على كل حال، فقال:

يا عين فابكي لدمع ذري　　لخير البرية و المصطفى

وبكي الرسول وحق البكاء　　عليه لدى الحرب عند اللقاء[14]

و وقعنا أيضا على مرثية صفية بنت عبدالمطلب ترثي الرسول الله صلى الله عليه وسلم:

ألايا رسول الله كنت رجاءها　وكنت بنا برا و لم تك جافيا[15]

و أول خليفة للرسول صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي تولى السالطة الإسلامية من بعده، و أدى دورا حاسما في توحيد المسلمين، و دفع الفتن الداخلية وخارجيتها، و أنقذ الأمة الإسلامية من جميع الشر و الفتن بأحسن طريقة، و عندما توفي في السنة الثالثة للهجرة، بكاه كثير من الشعراء و فيه يقول حسان راثيا:

إذا تذكرت شجوا من أخى ثقة　فاذكر أخاك أبابكر بما فعلا

خير البرية أعلاها وأعدلها　　إلا النبي و أوفاها بما حملا[16]

و خلفه عمر، فملأ الدنيا بعدله و زهده ولكنه لم يستطع أن يقنع مجوسيا و طعنه أبو لؤلؤة المجوسي طعنة مسمومة و هو قائم يصلي في المحراب، فبكاه المسلمون و أبنوه تأبينا رائعا، و من رائع ماقيل فيه من رثاء قول جزء بن ضرار الشماخ:

جزى الله خيرا من إمام وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق

فمن يجر أو يركب جناحي نعامة ليدرك ماقدّمت بالأمس يسبق[17]

و خلف عمر عثمان، وكانت في عهده أول فتنة في الإسلام، إذ ثارت به طائفة من شذاذ العرب وما زالوا بي حتى قتلوه وهو يتلو القرآن كريم فقال حسان:

ضحّوا بأشمط عنوان السجود به يقطّع الليل تسبيحا وقرآنا[18]

و من الأمثلة على ذلك قول أيمن خُريم:

ضحّوا بعثمان في الشهرالحرام ضحى وأي ذبح حرام لهم ذبحوا[19]

و هذه ليلى الأخيلة أشعر النساء بعد الخنساء ترثي عثمان بن عفان:

أبعد عثمان ترجو الخير أمته وكان آمن من عيشى على ساق

خليفة الله أعطاهم و خوّلهم ماكان من ذهب جوم و أوراق[20]

رثاء الأهل والأقارب والأصدقاء في العصر الإسلامي

و من المعلوم أن العصر الإسلامي مازال يشهد الحروب والمعارك، فنجد حظا وافرا من المراثي يرثي المسلمون شهداءهم من الأهل و الأقارب والرفاق، ويبكي المشركون أيضا، فتقول إمرأة من بني جشم ترثي أخوين لها أصيبها يوم حنين:

أعيني جودا على مالك معا و العلاء ولاتجمد[21]

و كذلك نجد متمم بن نويرة و كان شاعرا معروفا من أشراف قومه، اشتهر في الجاهلية والإسلام، قتل أخوه مالك في حرب الردة، فرثاه رثاء حارا، و ظل يبكيه حتى أبيضت عيناه من الحزن، و حتى أسخط عمر بن الخطاب على ماكان من قتل خالد بن الوليد له وصار ندبه لأخيه ضرب الأمثال و من أروع قوله فيه:

لقد لامني عند القبور على البكاء صديقي لتذراف الدموع السوافك

يقول: أتبكي كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى فالدكاك [22]

و من الأمثلة على ذلك قصيدة نهشل بن جرى يرثي بها أخاه مالك و كان قد قُتل بصفين ومن قوله في إحداها:

أناس صالحون نشأت فيهم فأؤدوا بعد إلف واتساق[23]

و كذلك الحرث بن هشام يبكي أخاه أبا جهل:

ألايا لهف نفسي بعد عمرو وهل يغني التلهف من قتيل[24]

و وقعنا على مرثية أبي زبيدة في أخيه الحلّاج فقال:

إن طول الحياة غير مسعود وضلال تأميل نيل الخلود[25]

و كان الأسود بن عبدالمطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده يوم بدر فيبكيهم و هو يخاطب إمرأة تبكي على بعير لها أضلته، قال: فذاك حين يقول الأسود:

أتبكي أن يضل لها بعير ويمنعها من النوم السُهود[26]

و كذلك وجدنا النابغة الجعدي يرثي إبنا له إسمه محارب و يذكر أخاه (أخا للنابغة) إسمه وحوح، و في ذلك يخاطب زوجته:

ألم تعلمي إني رُزئت محاربا فمالك، بعد اليوم خير ولا ليا[27]

و إذا طالعنا وجدنا هظا وافرا في ندب الشهداء المسلمين وتأبينهم حتى لو أراد أحد أمكن له الجمع ديوان كبير من الشعر الحزين المتفجع في بدر واحد خاصة.

فهذا الشاعر كعب بن مالك أحد أبرز الشعراء الثلاثة الإسلاميين، يبكي حمزة بن عبدالمطلب وقتلى أحد من المسلمين رضي الله عنهم، بقصائد، منها:

نشجت وهل لك من منشج و كنت متى تذكر تلجج[28]

و هذا حسان بن ثابت الأنصاري الصحابي و شاعر البني صلى الله عليه وسلم، عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام، و من أروع قصائده التي رثي بها حمزة بن عبدالملك رضي الله عنه و فيما بعض أبياتها:

أتعرف الدار عفا رسمَها بعدك صوب المسبل الهاطل

بين السراديح فأُدمانة فَمدفعِ الروحاء في حائل[29]

و قال حسان بن ثابت يبكي قتلى بئر معونة و يخص المنذر بن عمرو رحمه الله تعالى:

على قتلى معونة فاستهلّي بدمع العين سحّا غير نزر[30]

و هكذا يبكي سعد بن معاذ في بني قريظة، ويذكر حكمه فيهم فيقول:

لقد سجمت من دمع عيني عبرة وحق لعيني أن تفيض على سعد[31]

و من الرثاء الجيد ما قال حسان بن ثابت يرثي أصحاب مؤتة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال:

تأوبني ليل يثرب أعسر و همّ إذا ما نوّم الناس مسهر[32]

و هذا طبيعي أن يحس الإنسان أكثر ألم ويعاني من أعظم مصيبة حين يكون غريبا عن وطنه و أهله و أقاربه و تحين ساعة الموت و من خير صور الألم لذلك مالك بن الريب الذي غزا في خراسان فلما نزل به الموت ناح على نفسه قائلا:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بجنب الغضا أزجى القلاص النّواجيا[33]

و في قصيدة أخرى يقول:

ألم تريني بعت الضلالة بالهدى و أصبحت في جيش ابن عفان غازيا
لعمري، لئن غالت خراسان هامتي لقدكنت عن بأبي خراسان نائيا[34]

الخلاصة

هذه بعض النماذج لاتجاهات الرثاء الإسلامي التي تطورت في العصر الإسلامي و مازال العصر الإسلامي خاليا عن خراب المدن لأن هذا العهد كان عهد قوة و فتح للأقاليم المعادية للإسلام لتحطيم رووس الكفر فلذا لم نطلع على مراثي الشعراء فيها.وكشفت الدراسة أن أنواع الرثاء لم تتغير عما عهدته في العصور السالفة فإنتاجات الشعراء محدودة إلى ألوانه القديمة المروجة من الرثاء للنفس والأهل والأقارب والعلماء والأصدقاء والملوك ورثاء دعابة لجماد أو حيوان ظاهرة الألم وغايته الضحك والترويح عن النفس ، وحديث عن نكبات المدن.وأوصلنا البحث إلى أن الرثاء لم يختلف في محاوره ومحتوياته الأساسية ، فعنصر الحزن والبكاء والألم ، والحكم المستمدة من هذا الجو المشحون بالعبر، وتأبين المتوفى، والدعاء له، والحديث عن مصائب الناس في دهورهم أمور ألفها الشعر العربي وسيظل يألفها ما حنت البشرية إلى أحبائها الذين تفقدهم.

الهوامش

[1] - ابن منظور، ابوالفضل، جمال الدين محمد بن مكرم، الإفريقي، المصري، لسان العرب، دارالمعارف، القاهرة، 1992م ، ج:5، ص:138.

[2] - الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتب، مصر، 1301هـ، ج:2، ص:273.

[3] - ابن فارس، زكريا، ابوالمحاسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، دارالفكر، بيروت، 1979م، ج:2، ص: 488.

[4] - لسان العرب ج:5، ص:135-137.

[5] - الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ت: عطار، مادة"رثاء"، دار العلم للملايين، بيروت ، ج:14، ص:309.

[6] - السيوطى، جلال الدين، عبدالرحمن، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، المكتبة العصرية، بيروت ،ج:2، ص:499.

[7] - احسان عباس، شعرالخوراج، دار الثقافة، بيروت، ص:80.

[8] - الدكتور عفيف عبدالرحمن، الشعر و أيام العرب في العصر الجاهلي، دار الأندلس، 1984، ص:281.

[9] - الخفاجى، محمد عبدالمنعم، الشعر الجاهلي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1986م، ص: 247.

[10] - ضيف، شوقي، سلسة فنون الأدب العربي، الرثاء، دار المعارف، القاهرة. ، ص:56.

[11] - سورة الزمر30:39.

[12] - الرثاء، ص:35.

[13] - ناصيف، أميل، أروع ماقيل في الرثاء، دار الجيل، بيروت، 2006م ، ص:23.

[14] - الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأموي القرشي، كتاب الأغاني، دار الكتب، القاهرة، ج:21، ص: 143.

[15] - بديوي أنس، روائع الشعر المملوكي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج:7، ص: 13.

[16] - حسان بن ثابت، الديوان، دار المعرفة، بيروت، ص:83.

[17] - كتاب الأغاني، ج:9، ص:159.

[18] - ضيف، شوقي، الرثاء، ص: 58.

[19] - ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ص: 59، دار المعارف، القاهرة.

[20] - ابن قتيبة الدينوري، محمد بن عبدالله بن مسلم، الشعر والشعراء، ج:1، ص:369، دار المعارف، القاهرة، 1966.

[21] - ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، ج:4،ص:128، دار المعرفة، بيروت، 1398ھ.

[22] - أروع ماقيل في الرثاء، ص:21.

[23] - تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ص:75.

[24] - فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، ج:2، ص: 297، دار العلم للملايين، بيروت، 1981م.

[25] - نفس المرجع، ج:1،ص: 343.

[26] - السيرة النبوية، ج:2، ص:291.

[27] - نفس المصدر، ص:397.

[28] - نفس المصدر، ج:3، ص:110.

[29] - أروع ماقيل في الرثاء:ص:23.

[30] - السيرة النبوية، ج:3، ص:169.

[31] - نفس المصدر، ص:263.

[32] - نفس المصدر، ص:263.

[33] - القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب، ج:3،ص:269.دار الكتب العلمية، بيروت، 1986م.

[34] - ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، ج:1،ص:394.